كيان الذات في الشعر العربي المعاصر

عبد القادر فيدوح ــ كلية الآداب ــ جامعة البحرين

مقام الموقف

لقد آمن الشعراء ــ مثلما آمن هيدجر Martin Heidegger ــ بأن البديل الخلاق للعالم الحقيقي المشوش هو مملكة الشعر والروح[1]، ومن ثمّ سعت الذات الشعرية في محاولة جهيدة إلى تقمص وجدان العالم الروحاني، النوراني، بكل ما يطفح به من إشعاعات، وما يفيض بـه من كيانات نابضة بالجوهري المطلق، والصامت المغري، في سكونيته الأبدية، وروحانيتـه الأسمى، ومهابته الخالصة. ومن ثمّ، أيضا، تولّد لديها شعور بالانفصال عن الكلية البشـرية، ونزوع بالاتصال بعالم أنقى في سبيل تحقيق إنسانيته المطلقة ...فالشاعر الذي يكتشف سمته، أو خصوصيته الإنسانية المميزة، ويتقمصها في سلوكه وجدانيا، يُحس بغربته الشـديدة فـي ذاتيته البشرية التي يشترك فيها مع سائر الكائنات الحية، فينزع، أشد النزوع، بوجدانـه إلـى تجاوز ذاتيته صوب الموضوعية المطلقة، ما وجد إلى ذلك سبيلا، " ويصير " إنسانا بقدر هذا التقمص، وهذا الاتجاه، وبقدر جهده وجهاده بسلوكه فيه[2]. والشاعر إذ يستيقظ على مـا فـي الواقع من فواجع لا يملك ــ بفعل حساسيته ــ إلا أن يخلع نعليه، ويضعها تحت إبطيه، كمـا فعل بشر الحافي، ويولي هاربا، باحثا عن عالم الضوء والطهر والبراءة، وهذا يعني تحـول الذات وانتقالها من سلطة الغريزة إلى سيادة المبدأ، تجاوزا لذاتيتها السلبية بغية تحقيق شروط الحياة المنشودة في تجلياتها الإنسانية، وإيجاد المعادل المثالي لهذه الحياة. ولا شك فـي أنهـا مرحلة قاسية كفّ فيها الإنسان عن كفاحه الساذج في بدائيته إلى مكافحة ما تبقى، وما رسـخ فيه من الحيوانية، ولا شيء يفك إسار هذه الذات من الذاكرة الغريزية الراسية في المـوروث الكلي للأنا الجمعي، سوى سعيها الدءوب إلى معانقة المتعالي، ونشدان الكمال.

---

[1] ينظر، كولون ولسون : ما بعد اللامنتمي، دار الآداب ، ص ١٢٠

[2] ينظر، نظمي لوقا: نحو مفهوم إنساني، دار غريب ، ص ٧٩، ٨٠.

إن الطبيعة الحية للوجدان البشري لا تناقض نفسها، وبالتالي فإنه" من المستحيل أن تكون روح المرء متسمة بطابع النبل، والرفعة، في الوقت الذي يسعى فيه إلى تحقيق أهداف تتسم بطابع الخسة والضعة، فطبيعة الإنسان لا بد أن تكون متفقة مع أهدافه"[٣]، ولا سبيل إلى تجاوز معاني الدنو والسفه إلا بالتمسك بمعاني الرفعة وإمكانات التسامي، على اعتبار أن الإنسان قد حباه الله دون سائر المخلوقات بالإدراك الذي لا يشتمل على الحس المعرفي والجمالي وحسب، لكنه كما يقول **أبيقورس:** إنه هو الذي " يحسن كل شيء، ويوعز بكل شيء، ويعمل، ويحكم، ويهيمن، بينما تكون جميع الأمور الأخرى عمياء، وصماء، وبلا روح"[٤]؛ إذ إن غاية الإدراك ليست مجرد ترسيخ إحساس عميق وحسب، وإنما هي ضرب من الطموح المتعالي دون أن يتهدده شعور بالإحباط، أو السقوط.

إن نظر الإنسان ــ المدرِك ــ إلى ذاتية يشترك فيها معه أناس يمارسون حياة مشرئبة، يعد بداية وعي إنساني متفتح ومتحرر، يؤمن بأن الــ " هنالك "هو نقطة التحول الكبرى، ومن ثمّ يبدأ بالتذمر من الواقع، وتنشأ لديه فكرة البحث عن الخلاص، ولكن عجزه عن مواجهة المواقف التي تعترضه أمام تفاقم الأمور من أزمات، وإحباطات، وعدم اتساع مجاله الاستقلالي ــ على الرغم من اتساع مجاله الرؤيوي وقدرته المعرفية بالأشياء ــ قد يحدث فيه الشرخ الذي يؤدي إلى التناقض، " ومعنى هذا القول إننا تزودنا كبشر بمقومات وخبرات نفسية تهيئ لمشاعر الكراهية والعداء والانتقام، سبيلا ممهدة إلى نفوسنا، على أن من حسن الحظ أننا لم يكتب علينا التعبير عن هذه المشاعر الهدامة تعبيرا فعليا، وإنما يتوقف إلى حد كبير عند إقدامنا على مثل هذا التعبير، أو إحجامنا عنه، على الحضارة التي تظلنا، والنظم التي توجه سير حياتنا[٥] على اعتبار أن جميع الكيانات البشرية مهما اختلفت نزعاتها مرتبطة بالسلوك الحضاري الذي تنشده.

إن انتقالنا من متن الواقع إلى عالم الروح مثله مثل التحول من دائرة الغرائز إلى فضاءات المبدأ، وإذا كانت الخطيئة البدئية هي القدر الذي لا مفر للإنسان منه، فإن الصراع ضد استمراريتها فينا أمر لا مناص منه كذلك، في خضم المعترك الحضاري الآني الذي يفتح

---

[٣] هــ . أ . أوفرستريت : العقل الناضج، ترجمة : عبد العزيز القوصي، ، مكتبة النهضة المصرية، ص ٢٨٨

[٤] إنسانية الإنسان، مؤسسة المعارف ، ص ٣٩ .Ralph Barton Perry رالف بارتون بري

[٥] هــ . أ . أوفرستريت : العقل الناضج، ترجمة : عبد العزيز القوصي، ، مكتبة النهضة المصرية، ص ٢٥٨

فوهته على فظاعة المشهد الإنساني، ويقين الذات بعدم مقدرتها على وصل ذاتيتها بالكمال المنشود من جهة استحالة انسجامها معه من جهة أخرى؛ الأمر الذي يؤدي إلى الخيبة الإنسانية أمام انهيار القيم، وتفاقم الأزمات، في منظور الشاعر لـ " **رؤيا العالم** " وما يحيط به، كما في قول أدونيس:

أنا هو الواضع كالعرَّافْ
رؤياه والعلامة
في الأفق في لغاته الكثيرة
أنا هو الفرات والجزيرة[٦]

لقد أدرك أدونيس في هذا المقطع معنى قيمة العزيمة، حين أظهر تبرما مما يواجهه لفظ الاستسلام، أو حين رفض أن يترك الأيام تكتب نوائبها على صفحات رؤى كيانه، وهنا " يتحول أدونيس نفسه إلى عرّاف، يضع رؤيته حول الواقع الذي يحيط به، ويقدم تصوراته، وعلاماته، وإشاراته عنه. يستقرئ الأفق في معارف شتى، يحمل المعرفة، ويفهم العالم. وعبارة " **في لغاته الكثيرة** " أي إنه يعرف العالم بكل لغات جنسه، وأطيافه، وشرائحه، وبكل دياناته وجنسياته، إنه يعيش حالة من التوحد مع الذات الجماعية، تتكون أناه هنا، فوق ــ فردية"[٧]، كما في [مرآة لزيد بن علي] :

أسْتَشْرفُ المكتوبْ
في صفحةِ الخلافهْ
مَرسومةً كالقبر تحتَ راحتيْ هشامٍ:
رأسكَ بين النّصْل والرّصافَه
مُهاجرٌ
والجسَدُ المصلوبْ
يُنثرُ مثلَ الصّوتْ
في نَهَرٍ...
لا ، لن يحولَ سيفٌ

---

[٦] الأعمال الشعرية الكاملة، م١ ، ص ٤٥٧

[٧] أحمد ياسين السليماني: التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، دار الزمان، ط١ ، ٢٠٠٩، ص ٣٢٦.

لي وَطنٌ في الماءِ ــ غيرُ الموتْ
يَجهلُ،
غير الصّلْب والحَريقْ
يجهلُ أن يُقرّبَ المسافَهْ
ما بيننا،
ويفتَح الطّريقْ[٨]

قلق الانفصال / الوحدة الإفرادية

إنه قلق الذات المصاحب لشعورها بالضيق والاختناق، الذات بوصفها كومة من الغرائز، والرغائب، والدوافع، بسبب إخفاقها في إيجاد معنى للحياة، لا في ذاتها، ولا بعيدا عنها " فالقلق هو الشرط الأساسي للإبداع الفكري والفني، والسمو الشخصي، والتضحية، وبكل ما هو فائق في التاريخ البشري، والرغبة في إزالة القلق إنما تعني الرغبة في إزالة العاطفة التي هي رمز الحرية والقوة البشرية، وميزة الإنسان على كل ما عداه من المخلوقات[٩]، وهذه الميزة هي التي تحرك فيه لذة الارتقاء، وتهدهد فيه أحلام السمو المتوالية في حركات تصاعدية لامتناهية، أو كما قال محمود درويش على لسان أحمد الزعتر:

تلك مساحتي و مساحة الوطن - الملازم
موت أمام الحلم
أو حلم يموت على الشعار

وقد يكون صلاح عبد الصبور أكثر الشعراء إدراكا لخبايا المشاعر العربية الخانقة، وتميز دلالاتها، واكتشاف ما يتوارى في مكمن حس فجيعة الضمير العربي الحي، المسلوب الإرادة ــ إكراها ــ وما أصابه من رزايا أورثته الهمّ على مدار النصف الثاني من القرن العشرين، "حاملا صخرته مع سيزيف"، مستجيبا لليأس الذي صار ظلَّه الموبوء، في انتظار

---

[٨] أدونيس: الأعمال الشعرية الكاملة، مج ٢ ص ٧٥

[٩] تشارلز فرنكل : أزمة الإنسان الحديث، مؤسسة فرنكلين، ص ٩٧ .

الذي يأتي ولا يأتي، متوسدا تجارب الضياع المريرة، وحالته العصيبة، بعد أن اختُبرت فيه كل تجارب البلاء من اتجاهات صبغَها، غَمٌّ عارِم، وهَمّ داهِم، وغَبنٌ متفاقم، حينها لجَّ بالأجيال المتعاقبة الحزن البليغ، النافذ على وجهه، حتى أصبح كل ضمير عربي يتنهَّد ألمه في كل لحظة بحرقة شديدة:

الناس في بلادي جارحون كالصقور

غناؤهم كرجفة الشتاء في ذؤابة الشجر

وضحكهم يئز كاللهيب في الحطب

خطاهمُو تريد أن تسوخَ في الترابْ

ويقتلون، يسرقون، يشربون، يجشأون

لكنهم بشر

وطيبون حين يملكون قبضتى نقود

ومؤمنون بالقدر

وعند باب قريتي يجلس عمى" مصطفى"

يحكى لهم حكاية.. تجربة الحياة

حكاية تثير في النفوس لوعة العدم

وتجعل الرجال ينشجون

ويطرقون

يحدقون في السكون

في لجة الرعب العميق، والفراغ، والسكون

"ما غاية الإنسان من أتعابه، ما غاية الحياة؟

أو كما في قوله:

ويسقط الإعياء
منهمرا كالمطرة.
على هشيم نفسي الذابلة المنكسرة
كأنه الإغماء"[١٠]

ولا شك في أن الشعور بالسأم، في وضائع مجريات الحياة، هو تعبير عن رؤيا كيانية، يعتنقها الشاعر لتفجير مكبوته الوجداني، والرؤيوي، والحضاري، بغية معانقة الآفاق البعيدة، ومجاهيلها الغيبية؛ ومن ثمّ اعتبر بؤرة للتعارض والتوتر والتناقض، وظلت السمة الأساس لحقيقته الحضارية متمثلة في كونه المرصد الوجداني لكيان الذات الإنسانية، ولذلك كان كل ما يدخل ضمن هذه الحقيقة هو مقتنص الذات من المطلق الكلي، وكل ما ينفلت منها هو غريب عنها، كما نجد ذلك في نصوص أدونيس، المتوهج بحرقة الحيرة من تبرم الحال مما دفعه إلى ثني العِشرة، وتفضيله اللاجدوى، بأهبة السفر، بعد إحساسه بالغربة الذاتية نتيجة ما آل إليه الوضع المحنط:

مسافر تركت وجهي على
زجاج قنديلي
خريطتي أرض بلا خالقٍ
والرفضُ إنجيلي[١١]

وبوسع الشعر الذي يقود إلى الدهشة، دهشة إعادة الخلق والابتكار اللامعقول أن يستمد دهشته من العادي والمكتشف باستمرار، ولعل محنة بعض الشعراء المحدثين هي إحدى تجارب القلق، قلق الترقب، والريبة، والانشطار، مما أدى بالشاعر " الأخضر فلوس" إلى أن يتشكل بعيدا عن مملكة البشر، في ملكوته السحري، هناك بعيدا، حيث كل شيء يخضع لسنين هذا الملكوت:

إنني أتشكل في ملكوتي، أحس
بنار بعظمي
أحمل مسغبتي فوق ظهري

---

[١٠] صلاح عبد الصبور: (البحث عن وردة الصقيع ــ شجر الليل)

[١١] قصيدة المسافر ، المجموعة الكاملة ، ص ٢٢٤.

وأقطع برا عريضا...
ونفسي تبكيكم في أماكن
نائية...
مترف تعبي
مدّ قوسا ونصبني غرضا
للسهام[١٢]

فالذات هنا سيدة، سيادة مطلقة، وهي تمارس وجودها المثالي من خلال التسامي على محدودية العالم اليومي لمواجهة العالم في فضائه الرحب؛ إذ هي تحترق لتبعث حبة من رمادها. والكيان هنا متخم بالمتعالي، وممتلئ بالروحي، ومفعم بالحركي والحيوي ، كما تستمد الذات قواها من إحساسها العميق الملامس للباطن، هاهي تنادي بعيدا، وتقطع :

تقطع برا عريضا

بحيث تكون مرمى للسهام، وموضعا للمتاعب، فتبتهج لما ترى من تجدد مستمر، وتشكل منتظر، ويبكيها أن يحرم غيرها لذة الانفصال دون أن يتهدده انكسار، وهنا لا يكون القلق مجرد عاطفة وجدانية، وإنما هو وعي كسير لقوانا العميقة الرابضة في أعماقنا، حين يدفعنا إلى جزر بعيدة:

فناديت ... أمسكت
الجزيرة
كانت يداي تخوضان في اللهب
إنني قد وضعت الرمال تخوما
لبحرك
والبر زينته بخطاك
صنعت لنفسي نيرا وعلقته
ورفعت الطقوس لكي تتنزل عن
قوسها شهبي

[١٢] مجلة القصيدة ، ع ٢

أيها الناس
يا أيها الغرباء اسمعوا...
هذه آخر النبضات فإن حريقا
بعظمي
والريح تصهل ...
فالقوا بأيديكم واقطفوا
سحبي...

إنها بَركة الرجل الصالح الذي تُخوِّض يداه في اللهب وتستمطر السحب، وتتنزل عن طقوسه الشهب، وهنا نلمس الحس" النيتشوي Nietzsche، ونبوءة الحكيم المجرب الذي لامس تخوم المجهول، واغترف من غياهبه ماء الشجر، من جوفه، وهو يجتذب العالم إلى حكمتـــه، يدعو إلى تشكل الآخرين واغتسالهم بالعاصفة وصهيل الريح، وهو يحمل بقلبه آخر النبضات، وبقية من شعلة البعث المقدسة، إنه يبحث عن استمرارية للتجديد، ولذلك فهـــو يســـعى إلـــى التشكل ثانية:

إنني أتشكل ثانية
هذه قدمي ..ذا طريقي...
وتلك المدينة أدخلها كي أراني

لا يريد أن يتكرر أبدا، بل يريد أن يهيئ ذاته لولادة متواصلة. لقد اختار بداية ولادته ونهايتها، في امتداد بين "**القدَم**" و"**المدينة**"، بين الوسيلة والغاية.

إن كيان الذات هنا مشحون بالرؤيا الكلية للوجود وهو يصبو إلى مثالية مطلقة، شاملة، تحتويه بفراغه المهيب، وينزع إلى الامتلاء، ويدخل في تفاصيل المدن التي تمنحـــه لحظـــة التجلي. ولا شك في أن القلق هنا منبعه الذات في تفكيرها، مثاليتها، وليس الواقع في "هيوله" في هبائه المنبث بفوضاه؛ الأمر الذي يجعلنا نجزم بـــوعي الـــذات بالمغـــايرة والاخـــتلاف، ونفورها من التوازي والتشابه؛ إذ هي لا تبحث عن بدائلها، أو مرادفاتها، وكل شـــيء ثبتـــت كينونته وانتهى إلى هدوء مترصّد، وسكينة مملة، ومن لم يمض إلى أسباب اضطرابه لا يجد معناه في الذات التي تحتضن الممكن على الدوام في احتمالاته المتعددة واللامحدودة، وترفض الواقعي لفضاضته واحتقانه بالراكد والثابت والرتيب؛ الأمر الذي دفع بكثير من الشعراء إلى

احتواء المنفى، ولعل محمود درويش أكثر الشعراء مصبوغا بهـذه الصـبغة، مكرهـا فـي خضوعه لسلطة الغربة، فيها من تفاصيل أوجاعه ما ملأ كيانه، وخطّ دواوينه بحبر دمه:

كان اغتراب البحر بين رصاصتين
مخيّما ينمو، وينجب زعترا ومقاتلين
و ساعدا يشتدّ في النسيان
..
في ليل الزنازين الشقيقة
قي العلاقات السريعة
و السؤال عن الحقيقة
...
سافرت الغيوم و شرّدتني
ورمت معاطفها الجبال و خبّأتني
...

و جدت نفسي قرب نفسي
فابتعدت عن الندى و المشهد البحريّ
....
جميل أنت في المنفى
....
كتبت مراثيها الطيور وشرّدتني
ورمت معاطفها الحقول و جمعتني[١٣]

ولذلك نجد " الأخضر بركة " في محاولته " **عاد** " يلجأ إلى مغتربه، ويفر إليه، وقد أنكـرت الذات أوبتها إلى المكان نفسه المعد، والمهيأ:

صار أحمد
مسحن الندى
عن فضاء العيون، انتشرن

[١٣] قصيدة أحمد الزعتر

لحافا من الصوف، أعددن له الشاي
رتبن أشياء المكان[١٤]

إنها رتابة المكان والزمان، حيث الكل قانع بتعاسته، ومنغمس في هذا التكـــرار، دون أن يحاول مرة أن يخرج إلى الهواء، أن يجرب حزنه ويأسه، ويحاور الأشياء مـــن حولـــه، ويصبو إلى الدهشة التي تفجر فيه السؤال، تسمو به إلى فضاء المصادفة والاحتمـــال، فهـــذا العائد من سجنه، من اغترابه، من أرض باردة كانت تسكنه، ومن وحشة جدران حزينة كانت تضم أضلعه:

عاد من قفص الاغتراب ...إلى
عشه
للبنات عيون تطل
عليه ...إذن... عاد من سجنه
كان عرس العواطف صينية نزلت
من على الحائط ، انفتحت وردة من
نحاس

هذا العائد، إذاً، لم يعد ليمتصه صمت المكان، بل ليلهب كيانه بشحنة الوجداني الـــذي يتجاوز آفاقنا الحياتية إلى دلالات إنسانية تؤدي إلى انفتاح الكيان على المجهول واللامتناهي، على اعتبار أن الذات ــ في محاولة وصل كينونتها بالعليائي ــ لا تسكن أبدا إلى فراغهـــا؛ لأن لها وجودا خارج الواقع الأرضي، ولها أيضا حقيقة تتجاوز ذاتيتها المســـتنفدة، " الفعـــل الإنساني ليس مقصودا لذاته، بل لمدلول أو معنى مفارق له"[١٥]، ومن ثم حلقـــت فـــي الآمـــاد البعيدة بحثا عن المعنى الإنساني في أعمق صوره وأنقاها.

ولعل الأساس الباطني لغربة المكان وتعاسته ــ على الرغم مـــن مشـــاعر الحنـــو والدفء الأسري ــ كان سبيلا إلى انفصال الذات، وتغربها، ونمو عاطفة القلق لديها نتيجـــة اصطدام الوعي الجوهري الباطني بهشاشة الواقع، وهكذا يهجر الشاعر " عشب الطفولة" و " دفء الفراش " ويدخل في الغياب :

---

[١٤] مجلة القصيدة ع ٢

[١٥] نظمي لوقا : نحو مفهوم إنساني، ص ١٥٤

نامت القرية
لم ينم
قلق المرأة ، الشمعة انطفأت
لم يزل
دفئه في الفراش
ترى هل يعود، اختفى المعطف
من على الباب
أحمد غاب ...
عن العائلة

ينفر الكيان المفعم بالحركة، والمسكون بالقلق، من ألفة المكان، ويتضاعف لديه الشعور بوجود إمكانات أفضل للحياة خارج أسوار الذات، بوصفها مجالا للتعاطي اليومي في صورته المجانية وعبثيته الهوجاء، ففي الإنسان صبوة للتسامي، ونِشدان للمثال، ونزوع إلى التقمص الوجداني، وليس الأفق أمامه إلا فرصة للتساؤل وفضاء للشك. ومن ثم لم تكن استجابة الذات لنداء التسامي بعيدة عن مجرد نزعة هروبية، بقدر ما كانت صرخة في وجه العدم، وتجاوزا لكومة الغرائز الراسية في الإنسان، والمصاحبة لنشاطه، بقصد إشباع حاجتها في الرغبة والاشتهاء، ولذلك نجد الشاعر في قصيدة : **مذكرات رجل مرفوض** " يكتشف رغبة ثائرة تنتصر للرفض، حيث لا شيء يملأ كيانه إلا الغضب المحمل بالتحول:

نظرت إلى فوق ثم بصقت
على الغيمة الكاذبة
وحولت ركضي...
وراء خطى الفكرة الغاضبة.

هذه السرابية، في انكسار ضوئها، التي تلف مظاهر الواقع الخارجي لا يمكن أن تصل إلى وجدان العالم الخارجي؛ لأنها محمولة على فرح كاذب، أفضى إلى خيبة الشاعر الذي لم يستسلم، وإنما حول مسار خطاه باتجاه " **الفكرة الغاضبة** "مجسدا بذلك حركية الذات المبدعة في بحثها المستمر عن الثائر والمتوهج، ذلك أن مجالها هو فضاء الممكن، والمتغير، والمنتظر، وليس الواقع المستقر والمحدود.

إن الفكرة الغاضبة ليست فكرة مجنونة، بل إنها رؤيا، رؤيا الذات الممزوجة بأرق السؤال، وتَعَب الخُطى عبر تجربة الخروج المريرة من الجدب والتيبس" **وهدم البناء**" العتيق، وخرقه، من أجل بعث كينونته في واقعها المتفجر بالمُشرق:

وتتبعني ... أينما ذهبت فكرتي
إلى أين أمضي
وقد تعبت خطوتي
فمن يعطني يده
لأدفع عني ركام البناء
سأحرقها ...
هذه الفكرة العابسة
وأمد يدا...
من جحيم دمي
خارج اللحظة اليابسة
وأهدم هذا البناء

وقد تكون صورة صلاح عبد الصبور أكثر دقة عن غربة المكان، المشفوعة بغربة الكلمة، خاصة في "**أغنية للشتاء**"، وقصائد أخرى كثيرة نجتزئ بهذا المقطع من أحلام الفارس القديم:

يا من يدلُّ خطوتي على طريق الدمعةِ البريئه !
يا من يدلُّ خطوتي على طريق الضحكةِ البريئه !
لكَ السلامْ
لكَ السلامْ
أُعطيكَ ما أعطتنيَ الدنيا من التجريب والمهاره

لقاءَ يومٍ واحدٍ من البكاره [١٦]

[١٦] صلاح عبد الصبور: أحلام الفارس القديم

تكمن بؤرة القلق، إذاً، في لحظة التيبس التي تحاول أن تقمع كيان الذات وتصل به إلى القنوط والإحباط، ولكننا نتلمس مقابل ذلك مقاومة عنيفة تظهرها الذات دفاعا عن وجودها، يقينا منها أنه **بإمكانها** أن تصل دائما إلى ما ينبغي أن تكون عليه. ولا شك في أن النظرية " البوفارية " التي جاء بها " بول دي جوتيه " هي تعبير عن إمكانية تحقيق تكاملنا الذاتي عن طريق اكتشافنا للجوهري فينا، حيث يرى " أننا نعكف على أن نكون ما لسْنا عليه، وأننا لا نحرز أية موهبة ذاتية لوجودنا؛ إذ نجتذب بعناد إلى كل ما هو بعيد المنال، وفي شيء من المغالاة توجد هذه الحقيقة، وهي أننا نكتشف في قرارة أنفسنا ما يمكن أن نكونه"[١٧]،على حد قول عبد العزيز المقالح في قصيدة رؤيا:

يداً بيد
أنا من يلم صعيد النجوم
ويجمع من تمر الفرقد
ومن يلمسُ البدر في أفقه
ومن يرتدي أنجم السرمد

وقوله:

ما كنت أدري من أنا
ما الغيم، ما الصحو، وما الندى
ما كنت أدري عمري الجميل[١٨]

وكلما اقترب الإنسان من مضامينه الداخلية أدرك أن هناك سبلا للمعاناة لامناص له منها، بوصفها فضاء لامتحانات جمة، تقترن بقدرته على التحدي والصمود، فالعالم مكتشف على الدوام، فيما يظل الإنسان رهين البحث عن اكتشافات جديدة لذاته، وهو يدرك ضرورة بعثها وتجديدها، هي نبرة المتعالي على ذاته وعلى الوجود، بحيث تصبح غاية الوجود الرغبة في تحقيق المطلوب، وليس في أن يدرك وجوده وحسب، ولكن أن يمارسه وفق طقوس الهدم المشتهاة، حتى ينعم الوفاء مع الذات، وهذا ما نتلمسه لدى الشاعر "عياش يحياوي" في قصيدة " **شظايا الذي لم يقل للقراصنة مرحبا** " حيث تفصح الذات عن شهوتها المتقدة في هدم الكون وإعادة بنائه:

---

[١٧] وليام أرنست هونكونج: معنى الخلود في الخبرات الإنسانية ، ترجمة: متري أمين ، دار نهضة مصر، ص ٧١

[١٨] ديوان أبجدية الروح، القاهرة، ط١، ١٩٩٦، ص ٤١

خلقت لأعبث بالكون، أهدمه
ثم أبنيه من شهوتي، وأموت[١٩]

ولأدونيس صور كثيرة من هذا القبيل في كل كتاباته، بما فيها النثرية، حين صاغ خطابا جديدا، وتأسيسا مغايرا للمألوف، ورؤيا جديدة للواقع، خاصة في"**الكتاب:أمس المكان الآن**" كما في قوله (اليوم لي لغتي)[٢٠]:

هدمتُ مملكتي
هدمت عرشي وساحاتي وأروقتي
ورحتُ أبحثُ محمولاً على رئتي
أعلّم البحر أمطاري وأمنحُه
ناري ومجمرتي
وأكتب الزّمنَ الآتي على شفتي؛

وقوله أيضا :

ابحث عن معنى..
ابحث عن نفسي في قوة
تقول لي أن أهدم الدنيا
تقول لي أن أبني الدنيا
(.....)
ابحث عن معنى

ويعلق أحمد الفقيه[٢١] عن أزمة الشاعر الخانقة بقوله "فالمتأمل في هذا النص الشعري المشحون بالتوترات النفسية.. والفجوات الدلالية يجد أن هناك ثنائيةً طاغيةً في النص بين:

---

[١٩] مجلة القصيدة، ع ٢

[٢٠] ديوان أغاني مهيار الدمشقي، المجموعة الكاملة ، ص ٢٠٦

[٢١] قراءة نصية من أغاني مهيار الدمشقي، الرابط http://26sept.info/start/

الهدم/ البناء.. بين: **الشر/ الخير**.. يريد الشاعر أن يبني دنيا جديدة من طراز جديد، دنيا غير مألوفة للبشر.. دنيا مملوءة خيراً، وفضيلةً، وأخلاقا. لا فساداً، ولا كذباً وخداعاً.. دنيا يسير ناموسها وفق نظم الله في كل شيء.. ومن خلال النص نشاهد الروح الصوفية المعذّبة التي تبحث عن نقطة ضوء في هذا الظلام الحياتي الحالك.. هذا الجدل الثنائي بين الباطن والظاهر في رحاب الفكر الصوفي يقود الشاعر إلى وحدة الوجود"

وكأن غاية التشهي الكبرى تكمن في جدلية الهدم والبناء، التي يسعى الإنسان إلى الخوض فيها عن طريق زلزلة كيانه من الداخل، ومساءلة أحلامه وطموحاته، ولكن اتقاد الشهوة سرعان ما ينتهي إلى الانطفاء، وتبهت ملامح الطريق، وتسقط الذات رهينة القلق المزمن في تحولاتها بين يقين مستغرق في شهوة الإغراء، وتساؤل مفتوح على مجهول كما في قول عياش يحياوي:

وذي ناقتي في اكتضاض الهجير تسيح
على قلق
ورماد الخيام يشيعها في التهاب هذا المدى
يا حمام الصباحات!...
يا طاعنا في الرحيل !...
تراني سأفتح كفي على وردة أو ردى.. ؟

إن مثل هذا التساؤل لا ينتظر جوابا، وإنما يطرح نفسه بديلا لقلق الذات التي تدفع بنفسها رهنا لإشباع كينونتها بفرح غائم، أو بضياع حلم، أو بانكسار ظَهْر، على حد قول المتنبي :

على قلقٍ كأن الريح تحتي أوجهها يميناً أو شمالاً

وأيا كان هذا الآتي "**وردة** "، أو "**ردى**" فإن الانقذاف في وهج الرحيل قد تم، وليس ثمة لحظة للتراجع حتى وإن كان الزاد حفنة من غناء أو حلم جدار بارد:

سأرحل، لا أدعي كفنا، أتوسد حلم جدار
وأذهب في وجهة قد تشابه حزني
أغني كما يفعل الطير قبل الجنون

فالطير هنا رمز للصعود والغناء، رمز للحركة والجنون، والجنون لغة التسامي، وتخطي عبث الحياة، وأغلالها، واستكمال مشروع التفوق عبر أبجديات الحلم، والغناء، والجنون، في رحيل دائم دونما بلوغ أفق أو نهاية.

هذه الكيانات المهمشة بين " الهنا ، والهناك " يجمعها صهيل الفرح الجامح في فضاءات الترحيل، بحثا عن مواسم الغناء في غياهب الذاكرة وعراجين الطفولة حيث يتفلَّت كيان الشاعر " سعيد هادف" من سذاجة الورد ونعومة الطواويس، إنه ينسحب من تجاعيد الصمت وفراغ المكان، سعيا وراء لفح الكلمات وصهد اللحظات المتعبة التي تمنحه فرصة التشكل، كما في هذه المحاولة:

تسلل من كومة الورد
انسحب من ظلال الطواويس
خذ اللحظة من خدرها
واسلق خرابك ــ لا غرو...
لا غرو ...!
فلست الوحيد الذي خذلته المواسم
لست الوحيد الذي أضرم نار الكتابة في جلجلان
الطفولة .. ها أنت ...
ها أنت في لهاة الصهيل..
صحبك الآه... والترحل[٢٢]

[٢٢] مجلة القصيدة، العدد الأول.

تشي هذه الصور من مَغبَّة التلاشي أمام عوالم تتكرر باستمرار، وتوصي بزوالها. ومن هنا تسعى الذات دائما إلى معانقة المضمر، واحتضان المجهول، واقتناص لحظات خارج الزمن، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، إلى خلق زمانها، وعالمها:

ها أنت ... لست الوحيد ..." الوحيد"
ها أنت...! قل : أنا خالق التوازن .. والكنايات
أنا نقيضي النقيض ... أنا ضد أسمائكم

ولنا في الشعر العربي الحديث ما يكفي من مثل هذه الصور المعبرة عن مآسي الرؤية الحضارية المنكسرة. وتعد تجربة الضياع، والهدم، وتمزق الذات، والقلق الوجودي، من السمات البارزة في الشعر العربي المعاصر، سواء أكان ذلك بدافع توالي النكبات والهزائم التي منيت بها أمتنا العربية، أم بدافع الوضع المتأزم، واشتداد وطأته؛ الأمر الذي أسهم في العزف على أوتار سيمفونية الهدم والدمار. ويظهر ذلك جليا، وبشكل أدق في شعر أدونيس، الذي يعد من أهم الشعراء الذين جسدوا ثنائية **(الهدم/البناء)** كما في "**المسرح والمرايا**" و" **الكتاب، أمس المكان الآن**"، وصلاح عبد الصبور في **(الظل والصليب)** وقصائد أخرى، والبياتي في ديوانه" **الذي يأتي ولا يأتي**" و "**الموت والحياة**"، وخليل حاوي في " **نهر الرماد**" و " **الناي والريح**" و "**بيادر الجوع**". دون أن ننسى نزار قباني " **الناطق باسم الذوق الشعري**" وصاحب **(حزب المطر)** في "**قمعستان**"، و"**السياف العربي**"، و"**المهرولون**"، و"**متى يعلنون وفاة العرب**"، و"**أطفال الحجارة**"، نجتزئ ــ من كل من كل ما مر بنا، وغيره كثير ــ بهذه الصورة الدالة، ولعل في غيرها ما يَنِمُّ عن عمق الفجيعة بصورة أكثر، يقول نزار في **حزب المطر**:

أنا لا أسكن في أي مكان
إن عنواني هو اللامنتظر ...
مبحرا كالسمك الوحشي في هذا المدى
في دمي نار .. وفي عيني شرر
ذاهبا أبحث عن حرية الريح،
التي يتقنها كل الغجر..
راكضا خلف غمام أخضر
شاربا بالعين آلاف الصور

ذاهبا .. حتى نهايات السفر ..
مبحرا .. نحو فضاء آخر
نافضا عني غباري
ناسيا اسمي ...
وأسماء النباتات ..
وتاريخ الشجر..
هاربا من هذه الشمس التي تجلدني
بكرابيج الضجر ..
هاربا من مدن نامت قرونا
تحت أقدام القمر ..
تاركا خلفي عيونا من زجاج
وسماء من حجر ..
ومضافات تميم ومضر ..
لا تقولي: عد إلى الشمس .. فإني
أنتمي الآن إلى حزب المطر..

وقد ذكرت ابنته **هدباء** ذات مرة في حوار معها أن أبيها نزار كان يقول لها: **شعري السياسي ضد من هدم الوطن، ولكني أكتب بحب، وأهدم حتى أبني.**

كل هذه الدواوين وغيرها كثير تعبر عن معاناة الخراب والدمار، والجفاف والعقم، وهي صفات تناولها معظم الشعراء برؤى متفاوتة، ولكنها تتفق على رسم صورة تردي الحال، وفقد المآل، بسبب الهزائم المتوالية، والأوضاع النفسية المتأزمة، والاضطراب المترامي الأطراف، والقلق الوجودي المستفحل.

ويبدو أن جوهر القلق ــ هذا ــ يتجه بالذات صوب الخلق وبواعثه في البحث عن تكيفات وجدانية وولع الإنسان بالمفارقة، حيث لا ترى الذات ذاتها إلا في نقيضها؛ لاستشراف بوارق الأمل.